التأثير السياسي الفاطمي والسلجوقي
في التعليم الديني بدمشق في القرن الخامس الهجري

الدكتور جمال محمد سالم عريكيز

جامعة الفاتح–ليبيا

مدينة دمشق من المراكز التعليمية منذ أن فتحها العرب المسلمون سنة (14هـ/636م) وحتى القرن الخامس الهجري، وقد مثل جامعها الكبير (الأموي)[1] المدرسة التعليمية الأولى الذي ارتبط إلى حد كبير بتعليم الدين الإسلامي بمذاهبه وفروعه المختلفة على يد العديد من العلماء والفقهاء (المستوطنين والوافدين) الذين توارثوا مناصبهم العلمية والوظيفية خلف عن سلف.

ولم يتوقف التعليم الديني بحلول القرن الخامس الهجري، بل شهد تطورا ملحوظا عن القرون التي سبقته، وأسهم بشكل كبير في التطور والازدهار السياسي والتاريخي، وفعاليته في الصراع الحضاري الذي شهدته المنطقة العربية خلال مرحلة الحكم الفاطمي والسلجوقي لمدينة دمشق، وباقي مدن بلاد الشام.

1- الجامع الأموي: أنشأه الخليفة الأموي الوليد بن عبد المالك خلال سنوات (706- 715م)، ويعتبر أقدم وأكمل آبدة إسلامية، كما يعتبر أول مسجد تضمن محرابا ومقصورة ومآذن وميضأة ومشاهد، وزاويا للتعليم، أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار الكتب العلمية، 1990م، مج2، ص ص 530 – 531؛ ابن جبير، رسالة اعتبار الناسك في ذكر الأثار الكريمة والمناسك المعروفة برحلة ابن جبير، ط2، دار وكتبة الهلال: بيروت، 1986م، ص ص 211- 222؛ الأصطخري، الأقاليم، مكتبة المثنى: بغداد، د ت، ص 33؛ ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار رحلة ابن بطوطة، دار الكتب العلمية: بيروت، 1992م، ص ص 106- 1123؛ النعيمي، الدارس، دار الكتب العلمية بيروت، 1990م، ج2، ص ص 285 -315؛ عفيف البهنسي، الجامع الأموي الكبير، دار طلاس للدراسات والترجمة، دمشق، 1988م، ص 20 وما بعدها.

وعلى هذا الأساس كيف كان التعليم الديني في دمشق في القرن الخامس الهجري متمشيا مع السياسة القائمة على حكمها؟، وإلى أي مدى تطور وأسهم في استمرارية المد الثقافي التعليمي الذي شهدته القرون المتتالية؟.

يلاحظ القارئ لتاريخ مدينة دمشق في النصف الأول من القرن الخامس الهجري استمرار الحركة التعليمية خلال فترة الحكم الفاطمي[1] على الأوجه المختلفة إلى جانب نشر دعوتهم الإسماعيلية، ولم تذكر المصادر التاريخية أن ولاتها قد اتبعوا سياسة عدائية ضد معلميها من العلماء والفقهاء وطلاب العلم، أو منعهم من ممارسة دورهم التعليمي، وفي القدوم والترحال منها وإليها، وممارسة وظائفهم التعليمية الدينية في نشر العلوم الفقهية والشرعية في الإقراء والرواية والسماع للأحاديث النبوية الشريفة، والتأليف في ذات الخصوصية مما ذهب بأحد الدارسين إلى الإشادة بهذه الفترة بالقول:"وأما مدينة دمشق فهي دار قرآن وحديث وفقه"[2].

وقد ذكر منهم الشيخ شمس الذهبي (ت: 748هـ/1348م) في حوادث تاريخ الإسلام حوال(خمسين وأربعين) ترجمة ما بين فقيه وعالم وشيعة خلال حوادث (451- 467هـ)[3]، والأهم من ذلك الفقيه الشافعي رشا بن نظيف بن ما شاء الله أبا الحسن الدمشقي الشافعي (ت: 444هـ/1052م) قد أوقف داره، التي "بدرب الخزاعية شمال الخانقاه السميساطية بباب الناطفانيين" للقراء في "حدود سنة أربعمائة"، وعرفت بدار القرآن الرشائية[4]. ويبدو أن هذه

1- حكم الفاطميون دمشق خلال سنوات (359- 486هـ/999- 1073م)، أنظر ابن القلانسي، تاريخ دمشق، تح سهيل زكار، دار الكر: دمشق، 1983م، ص ص 1 -2؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تح عمر بن عبد السلام تدمري، دار الكتاب: بيروت، 1990م، ج7، ص 281؛ تاريخ الإسلام، تح عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي: بيروت، 1994م، حوادث 451 – 470هـ؛...

2- الحسيني، محمد، دار السنة دار الحديث النورية، دار البشائر للطباعة والنشر، دمشق، 2002م، ص15.

3- الذهبي، المصدر السابق، حوادث 451-467هـ.

4- ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ط2، تح سعيد العمري، دار الفكر: دمشق، 1995، ج6، ص ص 255 – 256؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م، ج1، ص ص 9-

الدار جاء إنشاؤها بموافقة السلطة الفاطمية بدمشق لأن جل كتب التراجم لا تشيد إلا بواقفها فقط، وعلي أن موافقة السلطة السياسية تأتي ضمنية لعدم وجود ردة فعل نحو منعها لأنها تقدم خدمة عامة للسنة والشيعة معا.

وإذا ما تتبعنا السير الذاتية لعلماء وفقهاء دمشق، وما أوردته تلك الأعمال حول أدوارهم ووظائفهم التعليمية الدينية والفقهية فإنها تقدم وصفا تطبيقيا فيما كانوا يقومون به في الفترة الفاطمية من خلال هذا النموذج التوضيحي:-

رم	الاسم	تاريخ الوفاة	المكانة	الوظيفة	المذهب	مكان العمل
1	أبو الهاشم عبد الجبار عبد الصمد السلمي	364هـ/974م	مؤدب	مدرس	شافعي	الجامع الأموي1
2	أحمد بن محمد ..بن سعيد	393هـ/1002م	من كبار المشايخ	مدرس	شافعي	2=
3	أبو سليمان محمد عبد الله بن أحمد بن ربيعة	410هـ/1019م	مؤدب	مدرس	شافعي	3=
4	الحسن بن علي بن عبد الله أبو علي الرهاوي	414هـ/1023م	شيخ القراء	مقرئ	شافعي	4=

10؛ دور القرآن في دمشق، ط2، صححه وحققه صلاح الدين المنجد، دار الكتاب، بيروت، 1964م، ص12؛ ابن الجزري، غاية النهاية طبقات القراء، ط2، حققه بشار عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981م، ج1، ص284؛ ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، تح زكار، دمشق، 1988م، ج8، رقم 3652؛...

1- الذهبي، المصدر السابق، حوادث 351 – 380هـ، ص 325.

2- ابن عساكر، المصدر السابق، ج7، ص ص 161 – 162؛ البن الجزري، المصدر السابق، ج1، ص 253.

3- ابن عساكر، المصدر السابق، ج15، ص 500× الذهبي، المصدر السابق، حوادث 351-380هـ، ص ص 650 – 651.

4- ابن الجزري، المصدر السابق، ج1، ص ص 245 – 246.

5	أبو القاسم تمام بن أبي الحسين بن جعفر الرازي البجلي	414هـ/1023م	من كبار رجال الحديث	راوي	شافعي	1=
6	الميداني أبو الحسن عبد الوهاب بن جعفر..	418هـ/1027م	راوي	محدث	شافعي	2=
7	الخناني أبو الحسن علي بن محمد الدمشقي	428هـ/1036م	زاهد	مدرس ومقرئ	شافعي	3=
8	رشا بن نظيف	444هـ/1052م	فقيه	مدرس	شافعي	4=
9	الربعي علي بن محمد المالكي	444هـ/1052	راوي	محدث	مالكي	5=
10	الكتاني أبو محمد عبد العزيز بن أحمد الدمشقي	466هـ/1073م	عالم	راوي	شافعي	6=
11	أحمد بن الحسن المقدسي القطان	468هـ/1075م	فقيه	مقرئ	شافعي	7=
12	الحسن بن القاسم الواسطي غلام الهراس	468هـ/1075م	فقيه	مقرئ	شافعي	8=

1- ابن عساكر، المصدر السابق، ج10، ص 441؛ العماد الحنبلي، شذرات الذهب، منشورات مكتبة بيت المقدس: القاهرة، 1351هـ، ج5، 73؛ الذهبي، سيرة أعلام النبلاء تح حسن الأسد، مؤسسة الرسالة بيروت، 1985م، ج17، 290..

2- الذهبي، ص 499؛ العبر في خبر من غبر، ج2، ص 235..

3- ابن عساكر، المصدر السابق، ج12، ص 496؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج17، ص 138.

4- ابن عساكر، المصدر السابق، ج6 ص ص 255- 256؛ النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص ص 9-10؛ دور القرآن، ص12؛ ابن الجزري، المصدر السابق، ج1، ص 284.

5- الذهبي، المصدر السابق، ج17، ص ص 580-581.

6- ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص 250؛ الذهبي، المصدر السابق، ص ص 200-204.

7- ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص 257؛ الذهبي، المصدر السابق، ص 250؛ ابن الجزري، المصدر السابق، ج1، ص 228.

8- الذهبي، المصدر السابق، حوادث 461- 470هـ، ص 246.

ويبين هذا الجدول أيضا مدى اهتمام العلماء والفقهاء السنة بدمشق خلال الفترة الفاطمية بعلم القراءات، وفيما كان علماء الشيعة العلوية يأخذون هذا العلم علي أيديهم بل يمدحون ثقتهم في ذلك، منهم الفقيه الحسن ابن علي... أبا علي الأهوازي الشافعي فقد كان "شيخ القراء في عصره، ذكر الحافظ أو طاهر السلفي في معجمه قال: سمعت أنا البركات الخضر بن الحسن الحازل صاحبنا بدمشق يقول: سمعت الشريف النسيب علي بن إبراهيم العلوي يقول: أبا علي الأهوازي ثقة ثقة.."[1]؛ والمقرئ الحسين بن علي المعروف بالدمنشي الشيعي الدمشقي (ت: 491هـ/1097م)، " قرأ على أصحاب أبي علي الرهاوي، وأظنه أخذ من الأهوازي، وسمع من أبي الحسن ابن أبي الحديد"[2]، وقال ابن عساكر بشأنه "كان رافضيا، وهو الذي سعى بأبي بكر الخطيب إلى أمير الجيوش، وقال هو ناصبي يروي فضائل الصحابة وأخبار خلفاء بني العباس في الجامع، فكان ذلك سبب إخراج الخطيب من دمشق..."[3]

وبالإضافة لهؤلاء المعلمين وتأثيرهم المتفاوت على بعض العلماء والطلاب الفاطميين في الإقراء والرواية كان هناك تأثير وبروز لفئة المعلمين من الصوفية التي أسهمت بشكل وبأخر في التعليم الديني لتلك الفترة، ونالت مكانة كبيرة بين أهال دمشق وحكامها الفاطميين آنذاك. ولربما كانوا يقابلونهم بنوع من الاحترام، أو كما يقال في سبب إيواء دمشق للصوفية لما "اشتهر عنها أن حياة الزهاد والمتعبدين والمتصوفة فيها ميسورة موفورة، وأسباب العزلة والاعتكاف متوافرة"[4]، فالفقيه الشيخ علي بن محمود بن ماغر أبو الحسن الزرزوني (ت: 451هـ/1059م) كان من كبار مشايخ الصوفية، وجاء دمشق للتعلم والسماع من الفقيه عبد

1- ابن الجزري، المصدر السابق، ج1، ص246

2- ابن عساكر، المصدر السابق، ج14، ص 285؛ ابن الجزري، المصدر السابق، ج1، ص246.

3- المصدر نفسه، ص 246؛ الذهبي، المصدر السابق، حوادث 491-500هأ، ص92.

4- خالد معاذ، المرجع السابق، ص 481.

الوهاب الكلابي أحد علماء دمشق آنذاك[1]؛ والفقيه الدمشقي علي ابن الخضر ابن سعيد السلمي أبو الحسن الصوفي (ت: 455هـ/1063م)، روى عن خلق من العلماء والفقهاء[2]؛ والفقيه الخضر بن الفتح أبو القاسم الدمشقي (ت: 458هـ/1066م) محدث صوفي[3]؛ والفقيه أبو علي الدمشقي الصوفي المقرئ (ت: 459هـ/1067م) روى عن محمد ابن عبد الرحمان القطان بدمشق[4]؛ وإبراهيم بن علي الشيخ أبو إسحاق القباني (ت:471هـ/1079م) شيخ الصوفية بدمشق أقام بدمشق وروى عنه نصر المقدسي؛ وغيث الأرمنازي وجماعة من فقهاء دمشق، وكان صدوقا...[5]، وقد بنى لهم الفقيه "السميساطي أبو القاسم علي بن محمد بن يحي السلمي الحبشي (ت: 453هـ/1061م) من أكابر الرؤساء بدمشق "الخانقاه التي عرفت باسمه السميساطة في بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي[6]. ولربما مكانته تلك في العصر الفاطمي كرئيس من الأكابر أهلته أن ينال الموافقة الضمنية هو الآخر في بنائها لفقراء الصوفية بدمشق.

لم يشكل النشاط التعليمي الديني بدمشق في قراءات القرآن الكريم، ورواية الأحاديث النبوية الشريفة،والسماع لاجتهادات الفقهاء أي خطر على سياسة الدعوة الإسماعيلية الذي يبدو أنه كان يتمشى وسياسة الأمر الواقع، أو المشاركة في تلك المجالات لأجل استمرارية اتجاهاتهم العلمية التي لا تتعارض وتوجهات السلطة السياسية القائمة، ولم تبرز المصادر

1- الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث 451-460هـ، ص 258.

2- المصدر نفسه، ص383.

3- المصدر نفسه، ص445.

4- المصدر نفسه، ص468، ابن ثغرى بردي أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، المؤسسة المصرية: القاهرة، دت، ج5، ص 107.

5- الذهبي، المصدر السابق، حوادث 471-480هـ، ص39، ابن ثغري بردي، المصدر السابق، ج5، ص107

6- النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص ص 118-119.

التاريخية، وكتب الفقه أيضا إلى أي نشاط مخالف لعلماء الشيعة في فترة الحكم الفاطمي لدمشق، وتكتفي بالإشارة إلى أن القاضي الشيعي فلان، كان داعي الإسماعيلية بدمشق[1]؛ على خلاف ما آراه أحد الدارسين بقوله:"وبعد قدوم الفاطميين إلى دمشق رأوا أن استمرار نشاط الفقهاء يشكل خطرا عليهم لاختلاف مذهبهم عن المذاهب الفقهية في دمشق وتعارضه معها فحذر الفاطميون المذاهب غير الشيعية، فسياستهم تقوم على أساس خدمة المذهب الإسماعيلي، والتشريعات التي يجب العمل بها أن تبن علي أساس هذا المذهب، فكان أكثر قضاتهم من الشيعة الإسماعيلية، لهذا اختفى نشاط المذاهب الفقهية غير الإسماعيلية في أوائل الحكم الفاطمي لدمشق"[2].

ولربما كان هذا من جانب الفقهاء القضاة والأئمة الخطباء فقط لأنها تمثل أحد ركائز الصيغة الأساسية لأهداف السلطة السياسية القائمة على حكم المدينة، وفي الوقت الذي أشادت تلك المصادر بتشجيع الفاطميين، لنشاط تعليم القراءات ورواية الحديث الشريف بالجامع الأموي الذي اعتمده علماء وفقهاء السنة والشيعة معا حتى نهاية الفترة الفاطمية بدمشق بل استمرت قراءة أبي عامر،[3]، وأبي عمرو[1] لنهاية القرن الخامس الهجري.

1- ابن عساكر، المصدر السابق، ج16، ص244؛ ابن طولون القلائد الجوهريةـــ تح محمد دهمان، دمشق، 1980م، ص40.

2- محمد محاسنة، تاريخ دمشق خلال الحكم الفاطمي، الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، 1990م، ص292.

3- قراءة أبي عامر: قراءة في اللغة"كلمة تقرأ علي الوجوه تسمى حرفا،تقول: هذا حرف ابن مسعود، أي قراءة ابن مسعود،...، والحرف القراءة، التي تقرأ علي أوجه، وما جاء في الحديث الشريف من قوله عليه السلام: نزل القرآن علي سبعة أحرف، كلها كاف أراد بالحرف اللغة..، أنظر: ابن منظور، جمال الدين، لسان، مج2، ص ص 170؛ وابن عامر: أبو عمران عبد الله بن عامر اليحصبي (ت: 118هـــ)، م التابعين، الذين أثروا في القراءة في الشام تأثيرا كبيرا، وكانت له قراءة مميزة به، وهو مقرئ وقاضي دمشق في خلافة الوليد بن عبد المالك، واشتهر ابن عامر بالقراءة بعد وفاة الصحابي أبي الدرداء (ت:32هـــ)، وقد ظل أهل الشام يقرؤن بقرأته حتى سنة خمسمائة تقريبا، وذكر أيضا أنه علي المغيرة بن شهاب عن قراءاته علي

إن ما شهده العصر الفاطمي بدمشق في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري من اضطرابات سياسية قد أسهم في فقدان التأثير الإسماعيلي على المجتمع الدمشقي، ونجاح معلمي المذهب السني في المحافظة على الخلفية المذهبية لذلك المجتمع في نشر العلوم الشرعية السنية، بعيدا عن التحول السياسي بين الولاة الفاطميين الذي أخذ في السنوات الأخيرة وجها مخافا لما كان معهودا في تقاليد السلطة بأن يتولى الوالي أمرها بأمر السلطة المركزية بالقاهرة، فتحول بدون تقليد ومرسوم الخليفة الفاطمي، لضعفه؛ ولحالة الفوضى في الحامية الفاطمية التي ارتكبها بعض الولاة وجنودها مع أهل دمشق أدت إلى حدوث أول فتنة بينهما عام (461هـ/1069)، وإشعال النار بإحدى جوانب المدينة، فلحقت بالجامع الأموي[2]، فتأثر لهذا المصاب أهل دمشق وسكان الشام والبلاد الإسلامية، ذلك فيما تركه لنا المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي بقوله متأثرا:"وفي هذه السنة وقع الخلف بدمشق بين العسكرية وأهلها، وطرحت النار في جانب منها فاخترقت واتصلت النار منه بالمسجد الجامع غربيه

عثمان نفسه نصف القرآن، أنظر: ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج1، ص424؛ العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج1، 156؛ الزرو، خليل، المرجع السابق، ص37-43؛ ويذكر النعيمي بصدد دار القرآن الرشائية، أن رشا بن نظيف بن ما شاء الله أبو الحسن الدمشقي المقرئ، قرأ بحرف ابن عامر علي أبي الحسن الداراني القطان (ت: 402هـ)، وانتهت إليه الرئاسة في قراءة ابن عامر، المصدر السابق، ج1، ص ص 9 – 10 .

1- قراءة أبي عمرو: بحرف أبو عمرو بن العلاء التميمي (ت: 154هـ)، الذي كان علامة زمانه في الفقه والنحو، وعلم القراءات، وقيل: اشتهرت قراءته إلى جانب قراءة أبي عامر اليحصبي بالشام علي يدي الفقيه سبيع بن مسلم المقرئ الضرير علي حد تعبير ابن الجزري، "وأظنه هو الذي أشهر قراءة أبي عمرو تلقينا بدمشق، بعدما كانوا يتلقاونه لابن عامر، والله أعلم، المصدر السابق، ج1، ص301؛ وأنظر ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، 1996م، ج1، ص 123؛ النعيمي، دور القرآن في دمشق، ص12؛ محاسنة، المرجع السابق، ص 112.

2- ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 162؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص216.

فاحترق في ليلة يوم الاثنين انتصاف شعبان من السنة، فقلق الناس لهذا الحادث والملم المؤلم الكارث، وأسف القاص والداني لاحتراق مثل هذا الجامع، الجامع للمحاسن والغرائب، المعدود من إحدى العجائب حسنا وبهاء ورونقا وسناء، وكيف أصابت مثله العيون الصوائب، وعدت عليه عادية النوائب"[1].

وإن تأثر بهذا الفعل القاص والداني لم تغير سيرة من جاء بعده من الولاة الفاطميين مما حذا بأحد الباحثين أن يشملها جملة بالوصف أنها" أشام العهود وأسوأها علي دمشق وبلاد الشام"[2]. بل أوجدت مناخا لحكمها بدمشق مشحونا بالفتن مع أهلها وتضررهم، فأدي إلي رفضهم لسياستهم ودعوتهم الإسماعيلية[3]. ولربما رحبوا بالبديل السلجوقي الذي يشاطرهم الاعتقاد المذهبي نفسه، والذي كان هو الأخر يترقب لحظة الاحتضار الفاطمي بدمشق وبلاد الشام لينقض عليها.

لذلك، اقتصرت السياسة التعليمية الفاطمية في تلك الفترة علي ما تقدمه المساجد من دور في ذلك، أو ما يتكلف به المشايخ والعلماء الميسورون في فتح بيوتهم ودكاكينهم وحوانيتهم لطلاب العلم، حتى أن فكرة ظهور المدرسة الدينية التعليمية بدمشق في القترة الفاطمية جاء تجسيدها علي أيدي علماء وفقهاء سنة، فالمدرسة الرشائية، وإن لم تكن مدرسة بالمعنى، فقد أنشئت كدار لتعليم القرآن فقط، من قبل واقفها الفقيه رشا بن نظيف، الفقيه الشافعي في حدود العقد الرابع من القرن الخامس الهجري، وكذلك الخانقاه السميساطية في العقد الخامس من هذا القرن، لعلماء الصوفية، جعلها واقفا الفقيه أبو القاسم

1- ابن القلانسي، المصدر السابق، ص162.

2- أحمد سبانو، دمشق في دوائر المعارف العربية والعالمية، دار الكتاب العربي، دمشق، دت، ص 128

3- محمد محاسنة، المرجع السابق، ص 295.

السميساطي، لغرض تعليم القرآن، لأنها لم تكن لتحمل معنى المدرسة في الفترة الفاطمية، لاقتصارها على منهجية محددة في قراءة القرآن، أو الحديث الشريف[1].

وبتولي السلاجقة[2] حكم دمشق عام (468هـ/1076م) عملوا على التركيز على التعليم الديني لدحض التشيع الإسماعيلي، وإن أخذوا دمشق بحد السيف في البداية إلا أنهم اعتمدوا على القلم أيضا، وذلك بتشجيع المعلمين من العلماء والفقهاء لاستمرارية نشاطهم التعليمي المذهبي في القراءة ورواية الحديث الشريف والتأليف في ذات الخصوصية. فالقارئ لكتب الطبقات سيجد عدد وتوفي في العقود الأخيرة من القرن الخامس الهجري.

والجدول التالي يوضح الوظيفة التي كان عليها هذا القرن:-

رم	الاسم	تاريخ الوفاة	المكانة	الوظيفة	المذهب
1	أحمد بن منصور بن محمد الغساني الداراني	468هـ/1075م	فقيه	مشتغل بالعلم	مالكي3

1- النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص ص 118 – 119.

2- السلاجقة: من قبائل الغز التي كانت تقطن الصحراء الواقعة بين حدود الصين وشواطئ بحر قزوين، ثم أخذوا في الهجرة إلى شواطئ جيحون عقب انهيار الدولة السامانية واعتنقوا الإسلام بسبب اختلاطهم بأهل بلدة جنج المسلمين، ولنشاطهم الملحوظ في الغزو على بلاد الدولة الغزنوية تمكنوا من فرض وجودهم السياسي والعسكري بل الاعتراف بهم كقوة ضاربة في تلك المنطقة، ولقرب وجودهم من العراق بلاد الخلافة العباسية تم الاستنجاد بهم لإنقاذهم من الجماعات الشيعية التي تزعمها الحارث البساسيري التركي، وتم ذلك في سنة (450- 451هـ)، ومنحهم الخليفة العباسي حق حكم البلاد الإسلامية فوجدوا بذلك مبررا لغزو البلاد الشامية لوقوعها تحت الحكم الفاطمي، فكان أخذهم دمشق سنة 486هـ عنوة؛ لمزيد من الإيضاح أنظر ابن القلانسي، المصدر، المصدر السابق، ص ص 166- 175؛ صدر الدين الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، صححه محمد إقبال، منشورات دار الأفاق الجديدة: بيروت، 1981م، ص 98؛ أبوبكر الطروشي، سراج الملوك، اعتناء أنطوان أفندي، المطبعة الوطنية: الإسكندرية، 1972م، ص 267؛ سهيل زكار، مدخل في تاريخ الحروب الصليبية، ط3، دار الفكر: دمشق 1975م، ص ص 256- 268؛ ... .

3- الذهبي، المصدر السابق، حوادث 461-470هـ، ص387.

2	حيدر بن علي بن محمد أبو المنجا القحطاني الأنطاكي	469هـ/1076م	فقيه	محدث	مالكي1
3	عبيد الله بن الواحد بن محمد أبي الجديد السلمي	470هـ/1077م	فقيه	محدث	مالكي2
4	أحمد بن محمد بن هبة الله أبو الحسن الأكفائي	471هـ/1078م	فقيه	محدث	شافعي3
5	أبو محمد الحطيني	472هـ/1078	فقيه	طالب علم	شافعي4
6	محمد بن سلطان بن حيوس	473هـ/1080م	أديب	شاعر	شافعي5
7	علي بن أحمد طبيز أبو الحسن الأنصاري	477هـ/1084م	فقيه	عالم في الفقه والنحو	مالكي6
8	عبد الجليل بن عبد الجبار ابن عبد الله أبو المظفر المروزي	479هـ/1086م	فقيه	قاضي، ومحدث	شافعي7
9	الحسن بن أحمد بن محمد.. أبو عبد الله السلمي	481هـ/1088م	خطيب	قاضي ومحدث	حنفي8
10	علي بن الحسن بن طاوس	483هـ/1090م	فقيه	طالب علم	شافعي9
11	عبد الواحد بن محمد .. أبو الفرج الشيرازي الحراني	486هـ/1093م	فقيه	واعظ محدث	حنبلي1

1- ابن عساكر، المصدر السابق، ج15، ص 381؛ الذهبي، المصدر السابق، ص 387.

2- ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 181؛ الذهبي، المصدر السابق، ص 336

3- المصدر نفسه، حوادث 471- 480هـ، ص 47.

4- المصدر نفسه، ص 80.

5- المصدر نفسه، ص 100.

6- المصدر نفسه، ص 200.

7- المصدر نفسه، حوادث 481 – 490هـ، ص 82.

8- المصدر نفسه، ص 131.

9- المصدر نفسه، ص 159.

12	علي بن محمد.. أبو القاسم المصيصي	487هـ/1097م	فقيه	طالب علم	شافعي2
13	الحسن بن محمد... أبو علي الساوي	488هـ/1095	فقيه	محدث	شافعي3
14	إسماعيل أبوالقاسم الطوسي	489هـ/1096م	فقيه	طالب علم	شافعي4
15	نصر أبو الفتح المقدسي	490هـ/1097م	شيخ	مدرس ومفتي	شافعي5

كما يبين هذا الجدول أيضا أن دمشق خلال الفترة السلجوقية الأولى، وحتى مجيء الغزو الصليبي قد اعتمدت على عدد من الفقهاء والعلماء للتعليم في مجالات الحديث والوعظ والفقه على مختلف مذاهبه، ومجيء طلاب العلم إليهم، لأن جلهم كانوا وافدين من المشرق والمغرب ومن بلاد الشام، وهذا انعكاس لما يلاقونه من تشجيع من سلطات المدينة في المجيء إليها، لتحقيق هدفهم السياسي والمذهبي.

و لم تمهل السلطة السلجوقية بدمشق الاهتمام بالتعليم الديني باستمرار فهي سلطة منفذة لسلطة علية ومركزية في بغداد وأصفهان التي بدأت توجهها التوسعي بسياستين السيف والقلم معا، و لم يكن بإمكانها الاستغناء عن الأداة الثانية أهم أهدافها فيما مثله الرجل الثاني في السلطة المركزية من دور لترسيخ هذا الهدف، وهو الوزير نظام الملك أبو الحسن

1- ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 206، الذهبي، المصدر السابق، ص 179.

2- ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص 375؛ الذهبي، المصدر السابق، ص 216.

3- المصدر نفسه، ص 241.

4- المصدر نفسه، 295.

5- السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج3، ص ص 28-29؛ الذهبي، المصدر السابق 246 – 248.

الطوسي[1]، رجل العلم والسياسة في الدولة السلجوقية من إنشاء المدرسة النظامية ببغداد خلال سنوات (457 -459هـ/1065-1067م)[2] في تكوين فئة ذات فعالية مؤثرة على ذهنية المجتمع الإسلامي المشرقي كان لها صداها حتى قبل تلك الفترة وهم العلماء والفقهاء وطلاب العلم للمشاركة ضمنيا في حركة الغزو السلجوقي في البلاد الشامية لدحض التشيع الإسماعيلي الذي بثه دعاة الخلافة الفاطمية الإسماعيلية في مرحلة غزوهم واحتلالهم لمدينة دمشق قرابة القرن[3].

والجدول التالي يوضح تأثيرات المدرسة النظامية من خلال أصول العلماء المشرقية في الفترة ما بين (468هـ/ 1075م – 492هـ/ 1097م):

رم	الاسم	تاريخ الوفاة	الغرض من القدوم إلى دمشق	الأصل
1	الحسن بن القاسم الواسطي	468هـ/1075م	قرأ بدمشق	واسط4
2	عبد الجبار عبد الله أبو الفتح الاردستاني	468هـ/1075م	سكن دمشق وحدث	أردستان1

1- الحسن بن الحسن أبو عبد الله الشهرستاني الشافعي، ولي قضاء دمشق سنة (477هـ/1084م) في أيام تتش، وقتل مجاهدا علي أبواب إنطاكية، أنظر الذهبي، المصدر السابق، حوادث 491 -500هـ، ص 92؛ والشهر ستاني نسبة إلى شهرستانة وهي بلدة من الثغور عند خراسان، مما يلي خوارزم يقال لها: رباط شهرستانة أنظر السمعاني، أبي الأنساب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، ج3، ص490.

2- ابن الأثير، المصدر السابق ج8، ص ص 204 – 212.

3- شاكر مصطفى، في التاريخ الشامي، 1998م، ج2، ص 81.

4- الذهبي،المصدر السابق،حوادث 461-470هـ، ص 250؛ وبلدة واسط، واسط العراق، وقيل لها واسط، لأنها في وسط العراقيين البصرة والكوفة، أنظر السمعاني، المصدر السابق، ج5، ص465.

3	ثابت بن احمد بن الحسن أبو القاسم البغدادي	476هـ/1083م	قدم من بغداد حاجا	بغداد2
4	عبد الجليل بن عبد الجبار أبو المظفر المروزي	475هـ/1086م	قدم دمشق وتفقه	مروز3
5	إبراهيم أبو إسحاق البجلي البوشجي	486هـ/1093م	سكن دمشق، ,أم بمسجد دار البطيخ	بجله4
6	الحسن بن محمد بن الحسن أبو علي الساوي	488هـ/1095م	حدث بدمشق	ساوى5
7	أحمد بن عمر بن الأشعث أبو بكر السمرقندي	489هـ/1096م	نزيل دمشق	سمرقند6
8	إسماعيل بن عبد المالك أبو القاسم الطوسي	489هـ/1096م	سمع بدمشق	طوس7

1- الذهبي، المصدر السابق، حوادث 461 – 470هـ، ص 254. وبلدة أردستان، أنظر: الهامش رقم (1) من هذا البحث، ص15.

2- ابن عساكر، المصدر السابق، ج5، ص31؛ الذهبي، المصدر السابق، حوادث 471-480هـ، ص 192.

3- الذهبي، المصدر السابق، حوادث 471-480-، 267؛ وبلدة مروز، نسبة إلى مرو الشاهجان، بلاد فارس، أنظر: السمعاني، المصدر السابق، ج5، ص1

4- الذهبي، المصدر السابق، حوادث 481-490هـ، ص 170

5- المصدر نفسه، حوادث 481-490هـ، ص241؛ وبلدة ساوى، بلدة بين الرى ووهمذان، أنظر: السمعاني، المصدر السابق، ج3، ص229.

6- الذهبي، المصدر السابق، حوادث 481-490هـ، ص 292.

7- المصدر نفسه، ص 295.

9	عبد المحسن بن محمد بن علي أبو منصور بن شهرانكه	489هـ/1096م	سمع بدمشق	بغدادي1
10	الحسن بن الحسن أبو عبد الله الشهرستاني	491هـ/1096م	عين بدمشق قاض	شهرستان2
11	صاعد بن سهيل بن بشر أبو روح الاسفرائيني	492هـ/1097م	قدم دمشق وحدث	اسفرئين3
12	الغضنفر بن فارس بن حسن أبو الوحش البلخي	492هـ/1097م	قدم دمشق للسماع من علمائها	بلخ4
13	الإمام أبو حامد الغزالي	505هـ/1111م	قدم دمشق عام 488هـ وصنف كتاب إحياء علوم الدين	طوس5

ويعمق هذا الجدول بلدان وأماكن قدوم هؤلاء المعلمين وطلاب العلم، وتأثيرات المدرسة النظامية لإنجاح غزوهم السياسي والمذهبي في بلاد الشام، فالبرغم من حالة الصراع التي أوجدها قادتهم وولاتهم بين المدن الشامية، إلا أنها ارتبطت بالمؤثرات العباسية والسلجوقية، لأن ما يحدث في بلاد العراق وأصفهان لا بد وأن يؤثر على ذهنية العلماء وطلاب العلم، وأيضا علي سكان الشام، وذلك فيما مثلته وحدة الاتجاه التاريخي والفقهي، وحتى الجغرافي

1- المصدر نفسه، ص 302.

2- المصدر نفسه، حوادث 490-500هـ، ص 92؛ السمعاني، المصدر السابق، ج3، ص 490.

3- الذهبي، المصدر السابق، حوادث 490-500هـ، ص ص 122-123.

4- المصدر نفسه، ص 131؛ وبلخ: بلدة بخراسان، أنظر السمعاني المصدر السابق، ج1، ص 407.

5- ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص396؛ السبكي، المصدر السابق، ج3، ص ص 101- 105

لبلاد المشرق والمغرب الإسلامي ككل في تكوينها لأحداث وواقع مدنها وبلدانها في وحدة تاريخية فقهية جغرافية ترتبط أصداؤها ومؤثراتها الواحدة بالأخرى، إذ كثيرا ما تذكر المصادر التاريخية، ككتابي ابن القلانسي، وابن الأثير ومن سار علي منهاجهما في رسم النظرة الشمولية للتاريخ الإسلامي " ووردت الأخبار من بغداد، أو العراق، أو دمشق، أو حلب، أو مصر والمغرب والأندلس، وبلاد الحجاز واليمن..."[1].

و لم تذكر المصادر التاريخية التي تناولت الفترة السلجوقية الأولي أن حكامها قد عملوا علي تحديد وظائف العلماء والفقهاء بدمشق بل تركوهم علي ما هم عليه وتشجيعهم في الإكثار من نشاطهم التعليمي والفقهي الذي يتمشى وسياستهم المذهبية بشكل عام دون التقيد بمعتقد السلطة السلجوقية المذهب الحنفي، وجعل المدينة دمشق فيما كانت عليه، كنقطة التقاء، وخط سير بين العلماء والفقهاء المشارقة والمغاربة والأندلسيين، والدماشقة علي حد سواء، منها وإليها، وإلي بيت المقدس ومكة في أوقات الحج والعمرة وطلب العلم، ومنهم من قرر الاستقرار والسكن بها لما تشهده المدينة من استقرار سياسي آنذاك.

مع ذلك، وجدت وجهة نظر مخالفة لما أثبتته العديد من الأعمال التاريخية في وجود العلماء والفقهاء وطلاب العلم، واستمرارية نشاطهم التعلمي في الفترة السلجوقية الأولي، واهتماماتها بها من حين لآخر، فيما ذكره المؤرخ الدمشقي أبو شامة (ت: 665هـ/1267م) في كتابة الروضتين بقوله:"أن بلاد الشام كانت تخلوا من العلم وأهله"[2] في هذه الفترة، مما يدعونا للتوقف والتفكير ما إذا كان أبو شامة محقا في قوله؟. وعليه فقد جاء تفسيره هنا

1- يذكر ابن القلانسي في تاريخه الحولي أنه "وردت الأخبار من ناحية العراق، ص ص 170 – 171؛" وردت الإخبار من ناحية حلب"، ص 173؛ "وردت الأخبار من ناحية المغرب"، ص ص 193-194؛"وردت الأخبار من ناحية حلب"، ص 173؛ وردت الأخبار من ناحية الحجاز"، ص 213.

2- أبو الشامة، الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية، دار الكتب العلمي: بيروت، 2002؛ ج1، ص 117.

علي قدر منشأه العلمي في فترة والنهضة العلمية التي شهدها بنفسه في العصر الزنكي والأيوبي، فقد أثرت في تكوينه المعرفي والفكري حتى أصبح لا يرى وجودا للعلم وأهله إلا من خلال تلك النافذة، التي عاشها وكتب عنها.

وبالرغم من ذلك فقد ظل التأثير السياسي لمدينة دمشق واضحا في الفترة السلجوقية الأولى، وأحد الأسباب المعينة في بروز فئة المعلمين من الفقهاء والعلماء وطلاب العلم، لأنها كانت بحاجة إليهم في تهيئة المناخ الديني السني لسكان دمشق، وتحقيق أهدافها في التغطية التعليمية لدحض التشيع الذي ما زال تأثيره في المدن الشامية، لقربه من فترة التأثير الإسماعيلي الفاطمي، ففي قراءة لتراجم الفقهاء والعلماء السنة خلال الفترة الأولى لحكم السلاجقة في دمشق سيما الوافدون من المشرق والمغرب وبلاد الأندلس، إفحاما للتأثير السياسي لحكام السلاجقة في ذلك، لأنهم يرون أنفسهم حماة لها في دمشق وبلاد الشام.

ففي العقد التاسع من القرن الخامس الهجري فتح المجال بإنشاء المدارس التعليمية ضد الفكر الفاطمي الإسماعيلي والجماعات الشيعية، ومحاولة السلطة السلجوقية الحاكمة، نشر ذلك منهج المذهب الحنفي، برغم معارضة فقهاء وعلماء وأهل لذلك لآن جلهم شافعية، ولهم ثقلهم بالجامع الأموي، ولهم مدارس كالرشائية والسميساطية، والغزالية، ولكن السلطة السلجوقية المتمذهبة حنفيا قد بدأت صلاحياتها بالاعتماد على ما جاءت به من بغداد، وذلك ببناء أول مدرسة بدمشق للحنفية، وهي الصادرية عام (491هـ/1098م) في عهد الأمير دقاق ابن تتش، وإن حملت اسم واقفها: شجاع الدولة صادر بن عبد الله، وهو من أعيان السلطة السلجوقية بالمدينة دمشق، وكان "أول من درس بها الإمام العالم علي بن زنكي الكاشاني، ولم يزل بها إلى أن نزل عنها الشيخ الإمام أبي الحسن علي بن الحسن البلخي الواعظ المشهور بالعلم"[1]، وهما علي المذهب الحنفي. ويبدو أنهما جاء مع الغزو

1- النعيمي، تاريخ المدارس، ج1، ص 413.

السلجوقي لبلاد الشام، لأن أصولهم من الشرق، فالكشاني من بلدة كاشان، والبلخي من بلدة بلخ، وهاتان البلدتان من مدن بلاد فارس (إيران الحالية)

ولم يعتمد الولاة السلاجقة بدمشق على هذه المدرسة فقط في تطبيق منهجهم التعليمي، وإنما على قاضيهم وخطيبهم: أبي عبد الله محمد بن موسى البلاخوني، الفقيه الحنفي (ت: 506هـ/1112م)، فيذكر أن هذا القاضي كان " مغاليا في مذهب أبي حنيفة"[1]، وما أن:" ولي القضاء بدمشق وبالبيت المقدس، أراد أن ينتقل محراب الشافعية من جامع دمشق إلى الحنفية، فثار العوام بدمشق، وصلوا بدار الجيل، موضع المدرسة الأمينية، فلم يلتفت، وجعل الإمامة للحنفية، وهو أول من فعل ذلك، ورتب الإمامة بعشق عشق، وبقي الأمر على حاله إلى سنة (570)..."[2].

وقد رفض الشافعية ذلك التصرف، "وتركوا الجامع الأموي، وصلوا بدار الجيل موضع الأمينية، والأمينية: مدرسة أسست للشافعية عام (493هـ/1099م)، أو بعد ذلك على غرار ومنافسة للصادرية الحنفية برسم واقفها أمين الدولة كمشتكين الطغتكيني نائب قلعة بصرى وصرخد، وأتابك العسكر[3].

ولخطورة تجدد الخلاف المذهبي، فقد نبه ولاة السلاجقة لعدم تكرار ذلك بدمشق أيضا[4]، فقللوا من نشاطهم السياسي في الاعتماد على المذهبي الحنفي، بترك الحرية لمختلف

1= ابن الجوزي، المصدر السابق، ج1، ص44.

2= ابن عساكر، المصدر السابق، ج56، ص 75؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ج11، ص44.

3= النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص 132.

4= شهدت بلاد المشرق في العراق وأصفهان، في فترة ظهور الدولة السلجوقية خلافات ونفن بين أصحاب المذاهب السنية، الشافعية، والحنفية والحنابلة، لمزيد من الإيضاح أنظر، ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص ص 190-129-282؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج12، ص62؛ المصدر السابق، ج3، ص 358؛ ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج3، ص 358.

أصحاب المذاهب السنية الأخرى العمل في بناء المدارس، وتنشيط الحركة الدينية والتعليمية، فيما تراه في مذاهبها لتوطيد صيغتها الرسمية التي جاءت بها من بغداد، مقر الخلافة الإسلامية، بتفويض من الخليفة العباسي، كحماة للمذهب السني سواء كانوا من العلماء والفقهاء الدماشقة، أو الوافدين من بلاد الشام، أو القادمين من بلاد الشام، أو القادمين مع الغزو السلجوقي.

وتذكر كتب التراجم عددا من معلمي هذه الفترة، كان لهم دورهم في مجالات مختلفة، وتشيد بالعديد منهم من تلقى علمه وفقهه علي أيدي علماء شافعية وحنفية ومالكية وحنابلة، بل أوضحت أنه به الفضل لبعض المعلمين في ترسيخ وتعليم أصول الفقه، كل وفق اجتهاد مذهبه، وهو ما أسهمت به السلطات السياسية في تشجيعها لهم، لتقدم خبراتها ومعارفها الفقهية لدحض التشبع الإسماعيلي الذي كانت عليه دمشق. ومن هؤلاء:-

1 - الفقيه الشيخ عبد الواحد بن علي أبو الفرج الشيرازي الحنبلي (ت: 486هـ/1093م)، "الواعظ الفقيه القدوة...، نشر بالشام مذهب أحمد، وتخرج به الأصحاب"[1].

2 - الفقيه أبو حامد الغزالي الشافعي (ت: 505هـ/1112م)،" قدم دمشق سنة (488هـ/1095م)، وصنف كتابه إحياء علوم الدين، وأسمعه بدمشق"[2].

3 - الفقيه أبو عبد الله محمد بن موسى البلاساغوني، القاضي الحنفي، " صنف أصول الفقه علي مذهب أبي حنيفة"[3]

1- ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، دار المعرفة: بيروت، د ت، ج2، ص149؛ العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج3، ص 378.

2- ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص 159.

3- ابن عساكر، المصدر السابق، ج56، ص 75؛ ابن الحوزي، المصدر السابق، ج8، ص 44.

وكان لعلماء وفقهاء المالكية أيضا مجال في تعليم المذهب السني المالكي، وإن كان دورهم في هذا المجال غير واضح في فترة السلجوقية الأولى، لأن أكثرهم من المغرب وبلاد الأندلس. ويبدو أنه كان غير مرغوب في مشاركتهم، وأن يكون لهم دور في البداية، وللتعبير عن هذا المضمون ما ذكره ابن عساكر عند ترجمته لقاضي السلطة: البلاساغوني بقوله:" وكان مغضبا لأصحاب مالك"[1]لاهتمام الفاطميين بهم في فترة حكمهم لدمشق، ولما أسهموا به في التخفيف من حدة المعارضة الدمشقية لدعوتهم الإسماعيلية في فترة حكمهم، ولربما لهذا لم تعول السلطة السلجوقية عليهم في ذلك كثيرا.

وعليه، كان لولاة السلاجقة بدمشق في نهايات القرن الخامس الجري دورهم في فتح المجال للعلماء والفقهاء في التعليم الديني بمختلف فروعه، بل أسهموا في استمراريته بشكل أكثر مما كان عليه في الفترة الفاطمية سيما في مجال الفقه الذي كان لا يتداول في الفترة الفاطمية، لتعارضه مع الدعوة الإسماعيلية، إلا أن المصادر التاريخية لن تبد، أو توضح مدى اهتمام السلطة السلجوقية بتطوير الأماكن التعليمية لتواكب ذلك الدور الذي اقتصر على الجامع الأموي والمساجد المحيطة به، وبعض المنشآت التعليمية التي أشرنا إليها أنفا، لربما المبرر في ذلك انعكس ما وصلت إليه الحالة السياسية والعسكرية بدمشق والشام في هذه الفترة من صراع أسهم في انشغالهم لدرء المخاطر التي تحيط بها، ولإعادة توازنها في المنطقة الشامية لضعف وانشغال السلطة المركزية في بغداد وأصفهان في فرض هيبتها السياسية علي ولاتها بالمنطقة، ولكن أسهمت هذه الفترة في التأثير علي الاهتمام بالتعليم الديني في العصر الزنكي والأيوبي والمملوكي، وفي تضخيم المنشآت التعليمية لذلك، وظهور المدرسة كبديل ومساعد للتخفيف عن الجامع الكبير والمساجد التي نالت اهتمام هذا العصر.

- ابن عساكر، المصدر السابق، ص 75.